(٦)

جرائم الحرب والعبودية

إذا كان تاريخ الخلاص هو قصة الشعب المختار وهو يتحرك ببطء، وفى شرود ولكن بإصرار صوب هدف أسمى، فإن التاريخ الحقيقى الذى يصاحبه ـ أى التاريخ حسبما نفهم المصطلح عادة ـ يمكن أن يبدو دمويًا. فالإصحاح ٣١ من سفر العدد، مثلا يسجل كيف أن بنى إسرائيل تحت زعامة موسى هزموا ثم دمروا إحدى القبائل الوثنية وهم المديانيين، الذين كانوا قد أفسدوا بعض الإسرائيليين بالممارسات الوثنية ـ يوحى الدليل بأن الديانة الكنعانية كانت تركز على آلهة الخصوبة والجنس الطقوسى. وقتلوا كل الرجال واستولوا على جميع ممتلكاتهم، وكانت بعضها قربانًا لشكر الرب. ثم أمر موسى بقتل كل الأطفال الذكور وكل النسوة المتزوجات(*) أيضًا. ومن بين الأسلاب التى وزعت على المنتصرين كانت هناك ٣٢٠٠٠عذراء. ولكن لم يكن ممكنا الاستمتاع بهن حتى يتم تنفيذ طقس النظافة بعد القتل: أما كيفية عمل هذا فقد تم شرحه بعناية.

وقد اقترح الباحثون المحدثون أن هذه النقطه فى قصة ليس لها أساس من الحقيقه – إنها وسيله تعليمية، توضيح الممارسات الطقسية ـ وهدفها أن تعّلم بنى إسرائيل النفور من عبادات الخصوبة لدى القبائل المحلية. ومع هذا فإن درجة الوحشية المقيتة والتعطش للدماء التى أوضحتها القصة صادمة للمشاعر؛ كما أن هذا ليس نصًا معزولاً. هكذا:

« متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوبًا كثيرة من أمامك الحثيين و الجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين

(*) وقال لهم موسى... فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة عرفت رجلاً... وتغسلون ثيابكم فى اليوم السابع فتكونون طاهرين ـ سفر العدد، إصحاح ٣١ : ١٧ ـ ٢٤..

والحوريين واليبوسيين سبع شعوب أكثر وأعظم منك . ودفعهم الرب إلهك أمامك فإنك تحرمهم . لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم » [سفر التثنية ٧ : ١-٢] .

« وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيبًا فلا تستبق منها نسمة ما . بل تحرمها تحريمًا . الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحوريين واليبوسيين كما أمرك الرب إلهك لكى لا يعلموكم أن تعملوا حسب جميع أرجاسهم التى عملوا لآلهتهم فتخطئوا إلى الرب إلهكم» (سفر التثنية ٢٠ : ١٦ ـ ١٨) .

والتعليمات الأخيرة توضح أن التدمير الكلى لهذه القبائل المجاورة تم الأمر به وإلا فإن ديانتها ستكون إغراء ماثلا بالكفر ، كما حدث بالفعل . ذلك أن الآلهة الوثنية كانت باستمرار مصدر جاذبية لبنى إسرائيل الذين كان يتم باستمرار إغوائهم بعيدا عن عبادة الرب الواحد الحقيقى .

كانت هناك مصادقة كافية من الكتاب المقدس على المذبحة والإبادة والاستعباد وما يسمى الآن التطهير العرقى ، التى ارتكبت كلها باسم الرب وغالبا بأمر مباشر منه .

وسفر التثنية (٣٢ : ٤٩ ـ ٥٠) و (٣٤ : ١ ـ ٥) يسجل اللحظة المحددة التى نظر فيها موسى ، قبل موته مباشرة من فوق جبل عباريم على الأرض التى وعد بها الرب بنى إسرائيل :

«اصعد إلى جبل عباريم هذا جبل نبو الذى فى أرض موآب الذى قبالة أريحا وانظر أرض كنعان التى أنا أعطيها لبنى إسرائيل ملكا ومُت فى الجبل الذى تصعد إليه وانضم إلى قومك كما مات هارون أخوك فى جبل وضم إلى قومه» (تثنية ٣٢ : ٤٩ ـ ٥٠) .

«وصعد موسى من عربات موآب إلى جبل نبو إلى رأس الفسحة الذى قبالة أريحا فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان . وجميع نفتالى وأرض أمزايم ومنسى وجميع أرض يهوذا إلى البحر الغربى . والجنوب والدائرة بقعة أريحا مدينة النخل إلى صوغر . وقال الرب هذه هى الأرض التى أقسمت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب قائلا لنسلك أعطيها . قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر . فمات هناك موسى عبد الرب فى أرض موآب حسب قول الرب» (تثنية ٣٤ : ١ ـ ٥) .

ونقل موسى قيادة الجيش اليهودى المتوحش إلى يشوع ، الذى كانت مهمته

الأولى أن يختن كل الذكور الذين لم يختنوا من قبل ـ من الواضح أنهم تجاهلوا الختان. أما مهمته الثانية فكانت غزو كنعان بالقوة. ويسجل سفر يشوع مصير مدينة أريحا (يشوع ٦ : ٢١) بعد سقوطها بالاستراتيچية الغريبة بالسير حول الأسوار فى دورات متتابعة مع نفخ الأبواق ويصحبهم تابوت العهد. **«وحرموا كل ما فى المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف . . . وأحرقوا المدينة بالنار»**

ولاشك فى أن هذه كانت الميزات العادية للنصر فى العالم القديم؛ ذلك أن المصريين والإغريق والرومان لم يكونوا يتصرفون بشكل مختلف، ولكن لابد أنه كان سيبدو غير واضح بالمرة، بالنسبة لمن عانوا من مثل هذه الوحشية التى صادق عليها الرب، ما هى بالضبط الرسالة التى اختار الرب شعب الرب لكى يوصلوها ـ سوى رسالة بدائية مؤداها أن «ربنا أفضل من ربكم».

وإذا ما كان لتفسير الكتاب المقدس أن يهتدى بالسلطات الدينية اليهودية أو المسيحية بدلا من أن يترك لكل فرد، حسبما كان الحال حتى حركة الإصلاح الدينى فإن الوحشية التى غالبًا ما يرد وصفها فى العهد القديم يمكن تفسيرها إلى حد ما وهكذا فإن الحكايات التى تكشف عن الأحوال العسكرية والسياسية لقبائل بنى إسرائيل، توضح أيضا أن رحلتهم الروحية تجاه فهم أفضل لما يريده الرب منهم. ففى البداية يظهر الرب فى أفضل الأحوال وكأنه لايبالى بمعاناة أعداء بنى إسرائيل (حتى نساؤهم وأطفالهم) وفى أسوأ الأحوال يسوق لهم الأسباب ويتلذذ بهذه المعاناة، بل ويتوقع أن يُشكر على فعل هذا. وبالتدريج تدخل القصة نغمة أكثر نعومة؛ ذلك أن سيف الغضب الحق قد ثَلم وتعلم العبرانيون أن ربهم هو رب العطف والرحمة الذى يفضل السلام على الحرب. ففى سفر إشعيا (٢ : ٤):

«فيقضى بين الأمم وينصف لشعوب كثيرين فيطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل. لا ترفع أمة على أمة سيفا ولا يتعلمون الحرب فيما بعد».

وبينما تعمق فهمهم للرب، تعمق فهمهم للإنسانية أيضا؛ إذ إن النصوص بدأت تهتم بالحالات العاطفية ـ السعادة والحزن والإحباط والفرح والشوق، بل وحتى الحب الرومانسى ـ مثلما تهتم بالأمور السياسية والعسكرية. وكان إله الحرب يبرز بالتدريج فى الضوء بوصفه إلهًا للعدالة والحب.

ولكن حتى القرن التاسع عشر على الأقل - بل ولا حتى فى ذلك الحين فى بعض الحالات - كانت المسيحية البروتستانتية تتجه إلى التعامل مع الكتاب المقدس بوصفه كتابا للتعاليم الدينية له قيمة متسقة، وكل جزء له قيمة مساوية لقيمة كل جزء آخر دونما مفهوم للتطور، وحتى إذا كانت هناك نظرية للتطور تعتبر مفضلة لدى الباحثين المتخصصين فى الكتاب المقدس، فإن مبدأ أن لكل بروتستانتى الحق فى تفسير الكتاب المقدس بطريقته الخاصة كان مبدأ غالبًا، وكان هذا يصدق بصفة خاصة حين يتم التعامل مع تاريخ الخلاص على أنه قرين للتاريخ الحقيقى، وباعتباره وصفا دقيقا لما حدث بالفعل، وكانت أية قصة يرويها الكتاب المقدس عن تدخل الرب ليست سجلا لما كان الناس فى ذلك الزمان يؤمنون به، وإنما كانت مجرد حكاية عما يحتمل أن يكون الناس قد أساءوا فهمه، **ونتيجة لهذا فإن السلوك الهمجى الذى يظهر بشكل أساسى فى بداية الفترة التى أعقبت الخروج يمكن أن يعطى وزنا باعتباره مثالا يتبع من العبرانيين الأكثر سلما وتحضرا فيما بعد. ويمكن وضع نهب ومذبحة أريحا مثلا باعتبارها موافقة إلهية على النهب والمذبحة التى ارتكبها كروميل فى دروغيدا وويكسفورد سنة ١٦٤٩م أثناء حملته الإيرلندية. وكذلك لم يكن المثال الوارد فى الكتاب المقدس يعتبر غير مفيد، عند مواجهة المستوطنين البيض للناس الأصليين فى أمريكا والذين يطلقون عليهم اسم الهنود. لقد كانوا تماما مثل الكنعانيين يقفون فى طريق «الشعب المختار» ويمتلكون أرضهم الموعودة.**

والحقيقة أن كروميل يتشبه بجدعون أكثر مما يتشابه مع يشوع، وجدعون هو الذى يدخل القصة بعد أن رسخ الاستيطان فى أرض كنعان تماما. وبعد يشوع جاءت فترة من حكم القضاة الذى جمعوا مثلما فعل موسى، بين الزعامة الروحية والزعامة السياسية. وكان المديانيون العدو القديم الذى قضى عليهم موسى ما يزالون نشطين فى أرض كنعان، وبلغوا درجة من القوة لدرجة أنهم أخضعوا الإسرائيليين وأبقوهم فى حال من الخوف على مدى سبع سنوات. وكان جدعون فلاحًا يخفى قمحه بعد درسه حتى لا يأخذه المديانيون، ثم جاءه ملاك وأمره أن يطيح بالطغاة، وكان المديانيون ما يزالون يعبدون إلههم بعل، وكانوا قد أغروا عددا من الإسرائيليين، بما فيهم أبو جدعون يوآش ليدخلوا فى دياناتهم الوثنية.

وكان يوآش قد بنى مذبحا كبيرا (أو برجا) ليكون صنما لعبادة الإله بعل، وتلقى جدعون أمرا بأن يهدمه. وعندما صاحت الجماهير مطالبة بإعدامه عقابا له حماه أبوه الذى توسل من أجله وتكلم ضد بعل. وبعد اتصالات أخرى مع الملائكة الذين قاموا بعدة معجزات ليبرهنوا على صدق جدعون وأبيه، جمع جدعون قوة لمحاربة المديانيين. بيد أن الرجال البالغ عددهم ٣٢٠٠٠ رجل تحت خدمته حكم الرب بأنهم أكثر من اللازم وصرفوا جميعا فيما عدا ٣٠٠ حتى يمكن للرب أن يبرهن قوته. وبمساعدة إلهية - تلقى الرجال أمرا باقتحام معسكر العدو وهم يحملون المشاعل المضيئة، وينفخون فى الأبواق ويصيحون «سيف للرب ولجدعون» وجدعون بحيث تسببوا فى فوضى كبيرة - هُزم المديانيون، وتم أسر ملكيهما وذبحهما، وسرعان ما جرت المذابح المعتادة.

ولأن أهل مدينة سكوت رفضوا أن يقدموا الطعام والشراب لجيش جدعون، عاد إليهم، ورجع جدعون بن يوآش من الحرب عند عقبة حارس، وأمسك غلاما من أهل سكوت وسأله، فكتب له رؤساء سكوت وشيوخها سبعة وسبعين رجلا، ودخل إلى أهل سكوت وقال هو ذا زبح وصلمناع اللذان عير تمونى بهما قائلين هل أيدى زبح وصلمناع بيدك الآن حتى نعطى رجالك المعيين خبزا - وأخذ شيوخ المدينة وأشواك البرية والنوارج وعلم بها أهل سكوت. وهدم برج فنوئيل وقتل رجال المدينة (سفر القضاة ٨ : ١٣ - ١٧). ومع كل هذا النجاح الذى أحرزه جدعون طلب منه أن يكون ملك العبرانيين ولكنه قال لهم: «. . . لا أتسلط أنا عليكم ولا يتسلط ابنى عليكم، الرب يتسلط عليكم» (قضاة ٨ : ٢٣)، ولكنه ظل قائداً لهم، فى دور القاضى على مدى أربعين سنة أخرى، وهكذا كان هو نمط الحاكم المسيحى المثالى والقائد فى المعركة.

ولا غرو أن جدعون كان شخصية مفضلة من شخصيات الكتاب المقدس فى عيون البيوريتان الإنجليز، كما كان بالنسبة لچون كنوكس والإصلاحيين الأستكتلنديين، الذين استخدموا مثاله لتبرير مقاومتهم للملكة الكاثوليكية مارى ملكة اسكتلندا. ومن الناحية التنميطية كان المديانيون يساوون الكاثوليك؛ بسبب عبادتهم المفترضة للأصنام (فقد كان الكالڤينيون يعارضون بشدة كل أشكال التصوير الدينى) وعبادة الآلهة المزيفة. لقد سحق جدعون المذبح الوثنى، وكسب

الجماهير حوله بالتبشير، كما أنه قد هزم العدو بعصبة ضئيلة من الرجال المخلصين باسم الرب، وقد راق هذا بشكل كبير للغاية لكروميل. **وفى معركة مارستون مور الحاسمة سنة ١٦٤٤م، كان مصير المعركة معلقا حتى قام كروميل على رأس قواته المتعصبة بمهاجمة خطوط الملكيين وهم يصيحون «سيف الرب وسيف جدعون» ونجحوا فى اختراق صفوفهم. كانت هذه لحظة حاسمة فى مصير الملك. هزيمته الكبرى الأولى. وفى صعود كروميل إلى سيطرته النهائية على قوات المحافظين الملكية. وبالنسبة للعقلية البروتستانتية فى القرن السادس عشر أو السابع عشر، كانت قصة جدعون تناسب موقفهم تماما. وتخلى جدعون عن دور الملك كان أيضا مصدر إلهام لقرار كروميل الشخصى بألا يتوج ملكا، ولكن بأن يحكم انجلترا «باسم الرب».**

وقد كرّس أندرو مارڤل قصيدته الطويلة «السنوية الأولى للحكومة تحت حكم سموه السيد الحامى» لتحية كروميل فى مصطلحات تنميطية تماما.

وتماما مثلما كان انتصار جدعون على المديانيين هو فى الحقيقة انتصار الرب، كذلك كانت انتصارات كروميل على قوات الملك هى انتصارات الرب. وبعد معركة ناسبى سنة ١٦٤٥م كتب إلى وليام لينتهول: «هذا النصر ليس سوى يد الرب؛ وإليه فقط يعود المجد، حيث ليس لأحد أن يشاركه».

كانت قصة جدعون هى أكثر سابقة يذكرها الكتاب المقدس للرأى القائل إن إرادة الرب هى التى شاءت للحكام الطغاة والذين يعبدون الأصنام ممن تسلطوا على شعب الرب. مثل المديانيين أو الملكيين الإنجليز فى القرن السادس عشر. أن تتم الإطاحة بهم بالقوة. ومثل جدعون أحس كروميل أنه مدعو شخصيا ليكون محاربا فى خدمة الرب. وقد أسماه ميلتون «رجل الرب الإنجليزى» وقبل النداء كان كلاهما فلاحًا.

والتعطش للدماء الذى أبداه البيوريتان فى الحرب الأهلية عندما تم إقناعهم بأنهم يقومون بعمل الرب اتخذ مثالا فى قصيدة لميلتون تتغنى بأمجاد كروميل فى الانتصارات التى حققها بما فى ذلك هزيمته الدموية للملكيين، والاسكتلنديين، والقوات عند دونبار فى اسكتلندا سنة ١٦٦٠م، وقبل ذلك عند برستون بلانكشير على نهر داروين.

والعلاقة بين الحرب الأهلية الإنجليزية فى القرن السابع عشر وحرب الاستقلال الأمريكية فى القرن الثامن عشر قد ذكرناها بالفعل. وفى حالة كرومويل كان المديانيون هم الملكيين الموصومين بعبادة الأصنام. وفى القرن التالى فى أمريكا الشمالية كان المديانيون هم البريطانيين، والتشابه النمطى هذه المرة لم يكن عبادة الأصنام وإنما كان هو الطغيان، على الرغم من أنه كان عند البداية ثمة تهديد كاثوليكى للپروتستانتية الأمريكية محسوسًا فى خلفية الأحداث.

بيد أنه كان هناك مشابهات شخصية أقل مع جدعون فى الحالة الأخيرة؛ وبدلا من ذلك كان أحد أكثر التلميحات شيوعا فى الكتاب المقدس هو الربط بين چورچ واشنطن وموسى، كما لاحظنا من قبل. **وثمة مثال على الإشارة إلى مثال جدعون يرجع تاريخه إلى ما قبل معركة كنجز ماونتين فى بلو ريدچ ماونتينز فى جنوب كارولينا سنة ١٧٨٠م عندما قام الوطنيون المحليون، وهم قوة تتألف أساسًا من الپرسبيتاريان جُردت ضد البريطانيين، تم جمعهم قبل المعركة بخطبة ألقاها القسيس المحلى بلغت ذروتها بصيحة الحرب الكرومويلية القديمة «سيف الرب وسيف جدعون» التى رددها الجميع بحماسة جنونية. ومن نافلة القول أن نقول إنهم كسبوا المعركة، ومثل معركة مارستون مور كانت تلك علامة البداية لنهاية الملكيين. وكما كان معتادًا فى التنميط الپروتستانتى ما أن يتم تحديد نمط عتيق من الكتاب المقدس، فإن الرب يفترض أنه يريد أن تجرى الأحداث بنفس الطريقة ويمكن طلب مساعدته، ولا شك فى أن أولئك الذين عرفوا أن الرب بجانبهم كانوا يستخدمون سيوفهم بمثل هذه الحمية العظيمة.**

كانت نهاية معركة كينجز ماونتين واحدة من أكثر القصص وحشية فى حرب متوحشة، وهناك واحد من الناجين من الموالين، نقل عنه روبرت هارڤى فى كتابه A Few Bloody Noses قد أخبر أحد زملائه كيف أنه بينما كان الجبليون يمرون عليه كان يتظاهر بالموت ولكنه كان قادراً على ملاحظة وجوههم وعيونهم بشكل واضح؛ وبالنسبة له كان هؤلاء المحاربون بالبنادق الجسورون الشجعان يظهرون مثل شياطين عديدة من الأقاليم الجهنمية؛ تملأهم الإثارة وهم يندفعون فوق الجبال مثل الأسود». أما البريطانيون (أى أولئك الأمريكيون الموالون للتاج أساسًا) فلم يلبثوا أن استسلموا، ولكن كثيرين منهم قتلوا على الرغم من ذلك، انتقاما من

المذبحة البريطانية التى جرت فى وقت سابق من الحملة. وبقى ميدان المعركة تتناثر فيه جثث الموتى والجرحى الذين مات منهم كثيرون نتيجة الإهمال أو سوء العلاج، وتم شنق تسعة من الموالين. ومات كثيرون من السبعمائة أسير عند مسيرتهم صوب الشمال فيما بعد. أما الجنرال كورنواليس القائد البريطانى العام، فأدرك أن عدد الأمريكيين الموالين للتاج والمنضمين إلى قواته يتناقص، وأن الوحشية التى مورست ضد الأسرى الموالين بعد معركة كينجز ماونتين هى أحد الأسباب الرئيسية فى ذلك، بيد أن سلوك الموالين تجاه الوطنيين لو أنهم كسبوا المعركة لم يكن ليفضل هذا السلوك بالضرورة، فهذه هى طبيعة الحرب الأهلية. وكان فيرجسون قائد الموالين قد أصدر بالفعل إعلانا يهدد بشنق الزعماء الوطنيين وأن «يضع البلاد طعاما للنار والسيف».

وثمة لاهوت لتاريخ الخلاص يكشف عن نفسه بوضوح فى سفر القضاة، وهو يوضح نموذجا فى العلاقة بين الرب والشعب المختار يحدث مرات ومرات فى العهد القديم وفى قصة الشعبين المختارين الجديدين فى انجلترا وأمريكا، وهو نموذج دورى إلى حد كبير عن الصحة الروحية الضائعة، والتى يتم استرجاعها بحيث يمكن للمرء أن يضعها تحت لافتة «أعراض الشعب المختار» و«نموذج الشعب المختار».

إما أن يبقى شعب العهد مخلصين ومطيعين للرب، وإما يتوجب عليهم أن يعانوا عواقب عصيانهم، والتى يمكن أن تكون من خلال فعل متعمد أو بمجرد عدم الاهتمام بالحفاظ على وعود العهد. فالطاعة تجلب السلام والرخاء؛ ويؤدى هذا بدوره إلى التراخى التدريجى، وعدم الإخلاص فى نهاية الأمر؛ وتضعف الجماعة فى وحدتها ونسيجها الأخلاقى، ومن ثم فى قدرتها على مقاومة العدوان. وإذ يتم غزو الجماعة واضطهادها على أيدى الأعداء الوثنيين - أى غير المختارين - تستعيد الجماعة وضعها وتدرك أسباب متاعبها. ولهذا تتوب الجماعة وترجع إلى ممارسات الدين الحقيقى وتستعيد القوة على المقاومة وتحرر نفسها، وتتوازى مع هذه الدورة الإنسانية دورة الرب. فحين يرى شعبه متراخيا أولا، ثم غير مخلص، يسحب بالتدريج حمايته ويسمح للأشياء السيئة بأن تحدث، وبصورة مباشرة أو من خلال أحد الأنبياء من فترة لأخرى، يرسل لهم مفاتيح ما جرى بطريق الخطأ حتى يفهموا

الرسالة. وبينما يرجعون إلى الإخلاص يسامحهم ويساعدهم على الإطاحة بأعدائهم مرة أخرى؛ وبذلك يعيدون الموقف إلى بداية الدورة (التى ما تلبث أن تبدأ إن عاجلا أو آجلا).

ويتحدث ساكفان بيركوفيتش فى «The Puritan Origins of the American Self» عن انجلترا فى القرن السابع عشر، ويصفها على النحو التالى:

«ألم يكن **الإنجليز مثل العبرانيين الذين ذكرهم الكتاب المقدس، قد جمعهم الرب لهدف أرضى، بشرط أن يلتزموا بسلوك شرعى؟ وألم يحمل هذا التواصل دور انجلترا الخاص، بدون التجنى على حقوق المختارين؟ إن إسرائيل الروحية كان لابد أن ترث المملكة: وكان بوسع إسرائيل الإنجليزية أن تزيح العقبات من طريق عودة المسيح. لقد كان حقا أن الإسرائيليين فشلوا فى عهدهم؛ بموت نحميا تخلى التدين عن مكانه للنفاق، وبمرور الوقت انتقم الرب انتقامًا عادلاً لنفسه؛ لأنهم أخلوا بوعودهم. بيد أن هذا لم يكن سببا لأن نفترض أن سفينة انجلترا القابلة للهلاك سوف تتبع مسار سفينة العبرانيين المؤدى للغرق. وعلى العكس فإن السابقة طوقتهم بطوق مزدوج للنجاح: باعتبارها تذكرة لفوائد الطاعة وتحذيرا من مغبة عدم الوفاء بالتزاماتهم. فإذا ما عاش الإنجليز ملتزمين بدورهم فى الصفقة، فإن الرب سوف يمنحهم الحماية الدنيوية، والقوة والامتياز الذى أسبغه من قبل على العبرانيين. وأكثر من ذلك، فإنه سوف يجعلهم سيفه ذا الحدين ضد تنين روما، وأداته فى التقدم السياسى والكنسى تجاه الألفية**».

وقد تم تبنى هذا النموذج باعتباره تحذيرًا تنميطيًا يصف الطريقة التى سوف تسلكها المجتمعات البروتستانتية - الذين يلعبون دورهم باعتبارهم شعب الرب الجديد - إذا ما صاروا هم أيضا متراخين وغير مخلصين. والأمر ليس بهذا الوضوح فى التنميط الكاثوليكى حيث يوجد افتراض راسخ منذ زمن طويل بأن الكنيسة لا يمكن أن تقع فى الخطيئة (على الرغم من أن الزعماء والأعضاء الأفراد فى الكنيسة يمكن أن يخطئوا).

كان الخوف من فقدان محاباة الرب حقيقيا بين المستوطنين البيوريتان الأوائل فى نيوإنجلاند الذين كانت فرصهم فى النجاة ضئيلة على الدوام.

وكان حتميا أن تسبب تطورات الحياة الاستعمارية توسيع الفجوة الثقافية بين انجلترا وأمريكا اللتين افتقرتا بصورة متزايدة إلى إحساس بالهوية المشتركة والمصير المشترك. ومع هذا كان ما يزال ممكنا الإيمان بشعب مختار أنجلو سكسونى واحد معرض لمحاباة الرب وغضبه. وكان ما يزال يمكن تطبيق التنميط البروتستانتى على هذا الكيان المشترك.

وقد أنهت الحرب الثورية بالضرورة هذا الإحساس الأنجلو-أمريكى المشترك نهاية مفاجئة. وكان الافتراض الأمريكى أن الاختيار قد انتقل إليهم من بريطانيا؛ بسبب انتهاكها الميثاق الإلهى بالسقوط فى هاوية الطغيان، ومنذ ذلك الحين فصاعدًا كانت هذه المكانة الفريدة من حق أمريكا وحدها. ولكن البريطانيين كانوا يرون العكس. فقد كانت خسارة المستعمرات الأمريكية عقابا أنزله الرب على شعبه المختار، جزاء سلوكهم غير القويم. وقد دعاهم نبى-يدعى وليم ويلبرفورس-لكى يقوموا بتعديلات لكى يستعيدوا حب الرب. وكان لهذا أن يتم بإلغاء الرق. وإذا كانت أمريكا قد استمرت فى ممارسة الرق على حين حرمته بريطانيا فمن سيكون إذن الطاغية بين الأمم؟

وكان توماس چيفرسون قد حاول أن يضمن تطوير تجارة الرقيق كواحدة من التهم الموجهة ضد چورچ الثالث فى إعلان الاستقلال، وقد ضمّن فقرة اتهمت الملك «بشن حرب قاسية ضد الطبيعة البشرية نفسها، وانتهك أكثر حقوقها قداسة فى الحياة والحرية فى أشخاص ينتمون لشعب بعيد لم يحدث أبدا أن أساء إليه بأسرهم وحملهم إلى رق العبودية فى نصف الكرة الأرضية الآخر». وتم إسقاطها من الوثيقة النهائية نتيجة الضغط من جانب مزيج من ملاك العبيد الجنوبيين والتجار الشماليين، ولم يصدر أى حكم حول الملكية الفعلية للعبيد. فقد كان چيفرسون نفسه من ملاك العبيد.

وكان أول طلب بإلغاء تجارة الرقيق هو الذى جمعه الكويكرز البريطانيون وقُدّم إلى البرلمان سنة ١٧٨٣م، وهى السنة التى أنهت فيها معاهدة پاريس العداوة بين الإنجليز والأمريكان نهاية رسمية، وجاء الدعم القوى لهذه المطالب من الناس الذين يطلق عليهم اسم الميثوديين، وإلى حد كبير من خلال تأثير چون ويسلى الذين بدأ إدانته للرق فى مقالة عنوانها «Thoughts upon Slavery» فى سنة ١٧٧٤م.

ولم يبذل أية محاولة لتناول الموضوع فى مصطلحات الكتاب المقدس مناشدا إحساسا فطريا لدى الإنجليز بالعدالة. كما أنه لم يفعل أى شىء بحقيقة أنه فى الوقت الذى كان يكتب فيه كان قد تم تحويل عدد كبير من العبيد إلى المسيحية (على الرغم من أن موجة التنصير الكبرى بين العبيد لم تكن قد حدثت بعد).

وبحلول سنة ١٧٨٨م ـ أى بعد ست سنوات من معاهدة السلام التى أنهت الحرب الأمريكية البريطانية رسميا ـ كانت هناك طلبات أخرى لإلغاء الرقيق تكتب فى جميع أنحاء البلاد. كانت تلك هى السنة التى صدر فيها أول تشريع لتنظيم تجارة الرقيق البريطانية وتقرر ليندا كولى فى كتابها:

«Britons : Forging The Nation 1707 - 1837 .»

«أسهم أيضا فقدان المستعمرات الأمريكية فى تنامى الحماسة للإصلاح البرلمانى والإصلاح الإمبراطورى، والتحرر الدينى، ولإصلاح السجون، ومستشفيات المجانين، والحماسة لأى تغيير يمكن أن يحول دون حدوث إهانة وطنية مماثلة فى المستقبل. ومع هذا فإن الحماسة الجديدة ضد الرق كانت مرتبطة بتجربة الهزيمة بطريقة خاصة. وكما رأينا كان البريتون أسرى إيمان قوى بالعناية الإلهية. ومثلما نسبوا انتصارهم فى الحروب السابقة إلى محاباة الرب للأمة البروتستانية الرائدة، فقد كثيرون منهم يسعون آنذاك إلى تفسير الهزيمة التى بدت غامضة على أيدى المستعمرين بإخفاقهم أمام عينى الرب. لقد كانوا فاسدين ومتكبرين، كما أنهم شنوا الحرب ضد إخوانهم البروتستانت. وقد استحقوا العقاب الذى نالهم. فى هذه الحالة ظهرت تجارة الرقيق، التى من الواضح تماما أنها تثير تساؤلات كثيرة بالمصطلحات الأخلاقية، كما أنها تجلب المكاسب الدنيوية والرفاهية، أبعد ما تكون عن الضمان».

وقد أعلن أسقف دورهام، الذى كان يؤيد الدعوى الناجحة لإلغاء تجارة الرقيق فى مجلس اللوردات سنة ١٨٠٧م: «لقد كنا شعبا مفضلا لدى السماء أكثر من أية أمة أخرى منذ بداية الزمان، ولكننا يجب أن نعى كيف أننا خسرنا حماية العناية الإلهية بالظلم المستمر».

غامرت بريطانيا بخسارة مساعدة الرب، التى ضمنت لها الانتصارات على

الأساطيل الفرنسية عند نهر النيل وفى «الطرف الأغر» كان هذا كلاما خطيرا إذا آمنت به؛ لأن نجاة الوطن تعتمد عليه. وإذا أخفقت بريطانيا فى تحقيق مستوى السلوك المتوقع منها باعتبارها الشعب المختار، فإن الرب كان سيسمح للهزيمة فى الحرب أن تنزل عليها. كما أن ويلبرفورس، الذى صار واحدا من أكثر رجال الكنيسة تأثيرا فى جيله، جادل بأن إلغاء الرق سوف يكون عملا ضروريا للتكفير عن الذنب إذا ما كانت بريطانيا تريد أن تتطهر وتستعيد حماية الرب. وكما تلاحظ كولى: «بالنسبة لهذه الثقافة البروتستانتية المهيمنة، صارت معاداة الرق عقدًا يتسم بصرامة خاصة مع الرب. فإذا ازدهرت بريطانيا العظمى، فمن الواضح إذن أنها يجب أن تحافظ على العمل الطيب». وهكذا صارت معاداة الرق وسيلة وطريقًا لتوضيح أن لقب «الأمة المختاره» كان ما يزال بحوزة بريطانيا، وليست أمريكا، وصارت سببًا لمعاملتها على أنها أدنى من الناحية الأخلاقية.

إنها نقطة جدل حول ما إذا كان ويلبرفورس قد انضم إلى قضية معاداة الرق على يد قبطان بحرى سابق، هو چون نيوتن، أو بطريقة أخرى. إذ كان نيوتن قد مر بتجربة اعتناق المذهب الإنجيلى المميزة ـ التى تعرف باسم التغيير العظيم ـ عندما كان مسئولاً عن سفينة لنقل العبيد، وعلى الرغم من أن هذا لم يكن معتادًا بالنسبة للبروتستانت، فإنه قد تأثر أيضا بالكتاب الكاثوليكى الشهير الذى صدر فى القرن الرابع عشر «The Imitation of Christ» الذى ينسب إلى توماس آكمبيس. **كان نيوتن هو كاتب الترنيمة الشهيرة «الرحمة المدهشة» التى لعبت دورًا مهمًا ومناسبًا بما فيه الكفاية فى حركة الحقوق المدنية الأمريكية فى ستينيات القرن العشرين ـ كما كتب كتابًا أدان فيه الرق بعنوان: Thoughts Upon the African Slave Trade واعترف نيوتن بخجله من البؤس والشقاء الذى كان واحدا من الذين تسببوا فيه. وقد كتب صديقه المقرب وليام كاوبير قصيدة عنوانها «شكوى الزنجى» تساءلت بأى حق إلهى استعبد الإنجليز الأفريقيين.**

قرر ويلبرفورس، فى الوقت الذى حدث فيه «التغيير العظيم» له أن الرب وضع أمامه هدفين مبكرين «إلغاء تجارة الرقيق وإصلاح السلوك والعادات». وللمساعدة فى تحقيق إصلاح السلوك، أخذ قائمة من القضايا الطيبة الأخرى تتدرج من إصلاح السجون إلى عمل الأطفال، متضمنة إعفاء الكاثوليك من القوانين الجنائية، وهو

أمر يبدو غريبا بالنسبة لپروتستانتيه الراسخة. و هو بدوره جند أصدقاءه المقربين فيما يسمى طائفة كلافام - وهم إنجيليون كانوا عادة من أبناء الطبقة العليا أو الطبقة الوسطى - وشنوا سويًا حملتهم فى البرلمان. و فى البداية واجهوا سخرية كبيرة؛ إذ إن جمعية الأصدقاء (الكويكرز) فى بريطانيا كانت تشن حملاتها ضد تجارة الرقيق منذ سنوات عديدة. ومن بين الأعضاء الإثنى عشر الأصليين فى جمعية إلغاء تجارة الرقيق التى قامت سنة ١٧٨٧م، كان هناك تسعة من الكويكرز. وكان معظم زملاء ويلبرفورس فى مجلس العموم من حزب التورى ضد القيود على تجارة الرقيق، وكان عليه أن يعتمد على الهويج من أمثال تشارلز فوكس، ووليم جرينڤيل، وريتشارد شريدان. وكان طلبه الأول لإلغاء الرق الذى قدمه سنة ١٧٩١م، قد لقى هزيمة عندما صوت ضده ١٦٣ مقابل ٨٠ صوتا معه. وقدم طلبات مماثلة عدة مرات مصحوبة بضجة عامة تتزايد باستمرار - على شكل اجتماعات، وطلبات ومنشورات - للمساندة. وأخيرا كسب أغلبية مجلس العموم سنة ١٨٠٥م، ولكنه هُزم فى مجلس اللوردات. وعلى أية حال فإنه تخطى آخر عقباته سنة ١٨٠٧م.

وفى ذلك الوقت كان جزء كبير من تجارة الرقيق فى أيادى البريطانيين - فقد بنيت ثروة موانئ مثل بريستول عليها - وكان على الأسطول الملكى وقفها. كانت عقوبة حمل العبيد مائة جنية استرلينى على كل عبد. وعندما كان القباطنة يواجهون مخاطر التفتيش ولكى يقللوا من الغرامات، كان قباطنة سفن العبيد يجبرون العبيد على القفز من السفن حيث يكون مصيرهم الغرق. وكانت الدوريات البحرية لفرض السياسة البريطانية أخذت ضريبة ثقيلة من رجال البحر البريطانيين على مر السنين. وقد زاد هذا من الاهتمام بإلغاء الرق نفسه وليس مجرد حركة نقل الرقيق. وفى البداية لم يوافق ويلبر فورس قائلا «إن منحهم الحرية فى الحال يعنى ضمان تدمير سادتهم وتدميرهم أيضا. يجب تدريبهم وتعليمهم الحرية». بيد أنه فى النهاية انضم إلى الجمعية الجديدة للتخفيف والإلغاء التدريجى للرق. وبعد موته بشهر واحد، فى يوليو سنة ١٨٣٣م، تم تمرير مرسوم إلغاء الرق، ليحرر كل العبيد فى الإمبراطورية البريطانية - وهو ما كان يعنى فى سياقه جزر الهند الغربية البريطانية أساسا. واستمر الرق على مدى جيل آخر فى الولايات الجنوبية بالولايات المتحدة الأمريكية، على الرغم من أن مورد العبيد الجدد قد تم قطعه بصورة فعالة بفضل الإغلاق البريطانى للسواحل الأفريقية.

كان دافع ويلبرفورس له جانب خارجي وجانب داخلي. وقد كتب في إحدى مقالاته المنشورة سنة ١٧٩٧م تحت عنوان:

Apractical view of the Prevailing Religion System of proffessed Christions in the Higher and Middle Classes in this Country Contrasted with Real Christianity ».

وأخذ من العهد القديم مبدأ أن مصائر الأمة تعتمد على رضاء الرب، الذى يعتمد بدوره على السلوك بطريقة أخلاقية ودينية إنجيلية مناسبة.

وهكذا كان نجاح الأمة هو السبب الأولى لإصلاح سلوكها. ولكن النجاح كان بيد الرب، وليس بيد الإنسان. وكذلك كان الحال مع الأفراد أيضا. أما دافعه الداخلي فكان هو الذى تعلمه من الحركة الإنجيلية التى بقيت داخل كنيسة انجلترا وحاولت إصلاحها من الداخل. وقد شعر الإنجيليون، بخلاف الكالڤينيين، أنه لايمكن لأى واحد أن يكسب الخلاص، ولكن يمكنهم الاستجابة - بالتغيير العظيم - للنبضة الإلهية (التى تسمى الرحمة). وعلى عكس البيوريتان، كان الإنجيليون أقل ثباتا على العهد القديم وزرعوا إحساسًا بالعلاقة الشخصية مع المسيح. وإذا تم إنقاذهم، فإنهم أظهروا خلاصهم بأعمالهم الطيبة، التى كانت بالتالى استجابة للخلاص، وليس طريقة لتحقيقه. وكان الإنجيليون مثل معظم البروتستانت حتى منتصف القرن العشرين على الأقل، على قناعة ثابتة بأن الكنيسة الكاثوليكية تعلم مذهبا صارما للخلاص بالأعمال؛ وباعتبارهم بروتستانت طيبين كانوا مرتبطين بواجبهم، بالتالى، يستبعدون من أية فكرة دينية أية تكاليف تشير إلى هذا.

كان الإنجيليون، مثل الكالڤينيين واثقين من خلاصهم، ولم يقلقوا بشأنه. وكان كثير منهم يحتفظون بمذكرات يسجلون فيها كل خطيئة مهما كانت ضآلتها، خوفًا من أن تكون علامة على أنهم يرتدون إلى الوراء. **وكان العلاج المختار دائما هو المزيد من التكريس للخدمة العامة. وكانت النتيجة أنهم كانوا ملتزمين ككل «بديانة أعمال» على حين كانوا ينكرون ذلك.** وقد أسس ويلبرفورس نفسه أو تزعم جمعيات إنسانية لا تحصى، وحملة ضد الرق، وكان نشطًا لصالح كل هذه القضايا، كما أنه كان يؤمن بأن الرب قد اختاره - وذلك قبل أن يكتب إليه چون

ويسلى مؤسس طائفة الميثوديين، خطابا يخبره فيه بهذا، وذلك قبل - بزمن طويل - أن يكتب، والواقع أن خطاب ويسلى كان آخر شيئًا كتبه، وعبر فيه عن تكريسه لقضية محاربة الرق. والسبب فى أن كلا من ويسلى وويلبرفورس قد انتهى بالانضمام إلى كنيسة مختلفة، كان هو أن ويسلى توجه بدعواه إلى الرجل العادى، أما ويلبرفورس فقد توجه بها إلى الخاصة والنخبة. ووفقا لرأى ويلبرفورس فإن المسيحية علّمت الغنى أن يكون متحررًا ومحسنًا، وعلمت الفقير أن يكون متواضعًا ومثابرًا وصبورًا. واعتقد أن كل الفروق الإنسانية ستختفى فى العالم الآخر، وليس فى هذا العالم.

ولاغرو أن ويسلى كان له أتباع فى أمريكا. وفى تقدمة قوية لإيمانه فى رعاية الرب، أخبر ويلبرفورس أنه لن ينجح مالم يشأ الرب أن يساعده. وقد أشار إلى مقالة كتبها أحد العتقاء هو جوستافوس ڤاسا، كان قد تم خطفه من أفريقيا، وأخذ إلى بربادوس ثم أحضر إلى انجلترا واعتنق مذهب المسيحية الإنجيلية، وتم إقناعه أن المسيحية والرق لا يتفقان. وفى ذلك الوقت تقريبا كان كتيب عنوانه Treatment and Conversion in The British Sugar Colonies كتبه چيمس رامزى، وترك أثرا هائلا يجادل بأن العبودية تحول دون اعتناق المسيحية. وفى مجادلة من المجادلات التى استخدمتها هاريت بيشر ستو بعد حوالى سبعين سنة، استخدمت بقايا هذه الحجة، وكان رامزى يجادل بأن «الرجال لن يستجيبوا لدروس الخلاص التى يلقيها على مسامعهم أولئك الذى يستعبدونهم على الأرض، أو للدروس عن السماء على حين أنهم محجوزون فى الجحيم».

بيد أن التبرير الأصلى للرق ورد فى الكتاب المقدس، واعتمد المسيحيون عليه على مدى عدة قرون، وهذا يوازن إلى حد ما الزعم بأن المسيحية عموما، والمسيحية الإنجيلية خصوصا يمكن أن تأخذ جدارة أخلاقية كبرى؛ لأنها كانت على رأس حركة لإلغاء الرق، فى كل من بريطانيا وأمريكا. فإذا كانت شرا محاه المسيحيون فإنه بالقدر نفسه كان شرا خلقه المسيحيون ودافعوا عنه. وحقيقة أن كثيرا منهم لم يكونوا إنجيليين، بينما هم مؤمنون صادقون، قد تم تفسيرها بشكل كاف من خلال الحقيقة القائلة بأن المذهب الإنجيلى كان ظاهرة لاحقة نسبيا فى تاريخ البروتستانتية، وحقيقى أيضا أن الإنجيلية باهتمامها الخاص بتجارب اعتناق الكبار

لمذهبها كان لها لاهوت لايحصر المسيحية البروتستانتية فى حدود جنس واحد أو عقيدة واحدة؛ إذ إن القدرية الكالڤينية الصارمة ـ بأن الرب قد قرر سلفا من سيتم خلاصه ومن لن يتم خلاصه ـ والتأكيد الأنجليكانى على عضوية الكنيسة بفضل كون المرء قد ولد إنجليزيا، لم يكن كلاهما يحبذ فكرة أن أى واحد يمكن أن يتم خلاصه بغض النظر عن جنسه أو لونه أو وطنه. **كان الإنجيليون مهتمين بشكل خاص بتنصير الناس أو تحويلهم إلى مذهبهم. وحقيقى أيضا أن عقيدتهم كانت أكثر ارتكازا على العهد الجديد منها على العهد القديم. وتوصف كنيسة العهد الجديد بأنها كنيسة مفتوحة لكل القادمين، على حين كان اعتناق اليهودية أمرا صعبًا وإن لم يكن مستحيلاً، وربما كان الإنجيليون أقل تأثرا بالمجادلات التى قامت على أساس تأييد العهد القديم للرق. وهم كانوا أكثر ميلا إلى رؤية عدم الاستمرارية، بل والتناقضات بين العهد القديم والعهد الجديد أكثر مما يرون فيهما الاستمرارية والاتفاق بينهما ـ لقد كانوا باختصار إحلاليين بدرجة أكبر. ومع هذا فإنه ليس هناك صراع واضح بين ما قاله العهد القديم عن العبودية وما قاله العهد الجديد. فقد أباحها العهد القديم: أما العهد الجديد فلم يمنعها.**

لم يكن تبرير العهد القديم للعبودية مما يمكن أن نسميه اليوم عنصرية، أى أن جنسا يعلو فوق جنس آخر. بيد أن الكالڤينية بشكل خاص لجأت إلى العهد القديم على أسس مشابهة، فاقتبست قصة لعنة نوح على كنعان ابن حام بعد أن أهان حام أباه عندما لفت الانتباه إلى عُرْيه. وكان يفترض أن الأجناس السوداء قد انحدرت من نسل حام، على أنه لم يحدث أبدا أن كان هناك أدنى دليل يثبت مثل هذه النظرية، وكان النص الخاص الذى اعتمدوا عليه من سفر التكوين (٩: ٢٥ ـ ٢٧):

«فقال ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته. وقال مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبدا لهم ليفتح الله ليافث فيسكن فى مساكن سام. وليكن كنعان عبدا لهم».

هذا النص اعتمد عليه البروتستانت فى أعماق الجنوب فى الولايات المتحدة، ليس فقط لتبرير الرق حينما كان موجودًا، وإنما أيضا لتبرير استمرار خضوع السود حتى بعد أن انتهى الرق، وبذلك يبررون التفرقة العنصرية.

وهناك أمثلة متكررة من العهد القديم عن الإسرائيليين المنتصرين وهم يأخذون الأسرى أرقاء وعبيدا، وهى عادة راسخة فى العالم القديم. وقد رسم سفر اللاويين قواعد صارمة لأخذ العبيد؛ إذ لايمكن للإسرائيلى أن يستعبد إسرائيليا آخر سوى بموافقته (لتسوية دين مثلا)، ويكون ذلك حتى السنة اليهودية اليوبيلية التالية فقط، والتى تجىء كل سبع سنوات، ولايجب بيع مثل هذا العبد لآخر، كما لايجب معاملته بقسوة، ولكن العبيد يمكن أن يؤخذوا من القبائل الوثنية دونما حدود ويبقى أولادهم وأولاد أولادهم فى رق العبودية. ويمكن شراؤهم وبيعهم، ولا تنطبق عليهم قاعدة عدم المعاملة بقسوة. وفى بعض الدول الكاثوليكية فى العصور الوسطى، فسر البعض القاعدة الواردة فى سفر اللاويين عن تحرير العبد الإسرائيلى فى السنة اليوبيلية القادمة بأن العبد الذى يعتنق المسيحية (أى انضم إلى الشعب المختار) ينبغى إطلاق سراحه فى الحال. ولا حاجة للقول إن هذا لم يطبق فى أمريكا البروتستانتية أو جزر الهند الغربية البريطانية البروتستانتية، وكان أحد الأسباب وراء عدم قدرة العبيد المسيحيين على رؤية سادتهم على أنهم مسيحيون مثلهم. وفى سفر اللاويين (٢٥: ٣٩-٤٦):

«وإذا افتقر أخوك عندك وبيع لك فلا تستعبده استعباد عبد. كأجير نزيل يكون عندك إلى سنة اليوبيل يخدم عندك. ثم يخرج من عندك هو وبنوه معه ويعود إلى عشيرته. وإلى ملك آبائه يرجع لأنهم عبيدى الذين أخرجتهم من أرض مصر لايباعون بيع العبيد. لا تتسلط عليه بعنف بل اخش إلهك. وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم. منهم تقتنون عبيدا وإماء، وأيضا من أبناء المستوطنين النازلين عندكم. منهم تقتنون ومن عشائرهم الذين عندكم الذين يلدونهم فى أرضكم فيكونون ملكا لكم. وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث مُلك. تستعبدونهم إلى الدهر. وأما إخوتكم بنى إسرائيل فلا يتسلط إنسان على أخيه بعنف».

ويشير سفر الخروج أيضا إلى القاعدة بتحرير العبيد العبرانيين كل سبع سنوات، وهو يوضح مدى ما يمكن أن يذهب إليه المالك من وحشية فى معاملة عبيده (غير العبرانيين)، ويعلن مبدأ أن العبد ملك خاص من أملاك سيده: يقول سفر (الخروج ٢١: ٢٠-٢٧):

«وإذا ضرب إنسان عبده أو أمته بالعصا فمات تحت يده يُنتقم منه. لكن إن بقى يومًا أو يومين لاينتقم منه لأنه ماله. وإذا تخاصم رجال وصدموا امرأة حبلى فسقط ولدها ولم تحصل أذية يغرم كما يضع عليه زوج المرأة ويدفع عن يد القضاة. وإن حصلت أذية تعطى نفسا بنفس. وعينا بعين وسنا بسن ويدا بيد ورجلا برجل وكيا بكى وجرحا بجرح ورضا برض. وإذا ضرب إنسان عين عبده أو عين أمته فأتلفها يطلقه حرا عوضا عن عينه وإن أسقط سن عبده أو سن أمته يطلقه حرا عوضا عن سنه».

وكان العهد الجديد أكثر اعتدالا، ففى رسالة غلاطية يبدو القديس بولس الرسول وكأنه يقترح أنه لايهم ما إذا كان شخص ما عبدًا، عندما يعلن:

«ليس يهودى ولا يونانى ليس عبد ولاحر. ليس ذكر وأنثى لأنكم جميعا واحد فى المسيح يسوع».

(رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ٣: ٢٨).

وفى رسالته إلى أهل كولوسى (٣: ٢٢) يؤكد على واجب الطاعة:

«أيها العبيد أطيعوا فى كل شىء سادتكم حسب الجسد لا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل ببساطة القلب خائفين الرب». ولكن هذه التعاليم تلوم مالكى العبيد الذين يتسيدون عبيدهم، والواقع أنهم يستمتعون بأملاكهم أيًا كانت. وحب التملك والفخر والغطرسة صفات لا تليق بالمسيحى: وفى رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيمو ثاوس (٦: ١-٧):

«جميع الذين هم عبيد تحت نير فليحسبوا سادتهم مستحقين كل إكرام لئلا يفترى على اسم الله وتعليمه، والذين لهم سادة مؤمنون لا يستهينوا بهم لأنهم إخوة، بل ليخدموهم أكثر لأن الذين يشاركون فى الفائدة هم مؤمنون ومحبوبون. علم وعظ بهذا.

إن كان أحد يعّلم تعليما آخر ولا يوافق كلمات ربنا يسوع المسيح الصحيحة والتعليم الذى هو حسب التقوى، فقد تصلف وهو لا يفهم شيئا، بل هو متعلل بمباحثات ومماحكات الكلام التى منها يحصل الحسد و الخصام والافتراء والظنون الردية ومنازعات أناس فاسدى الذهن وعادمى الحق يظنون أن التقوى تجارة. تجنب

مثل هؤلاء. وأما التقوى مع القناعة فهى تجارة عظيمة؛ لأننا لم ندخل العالم بشىء وواضح أننا لا نقدر أن نخرج منه بشىء».

وفى رسالة بطرس الرسول الأولى (٢ : ١٨ ـ ٢٠) يتخذ بطرس الرسول نفس الخط :

«أيها الخدم كونوا خاضعين بكل هيبة للسادة ليس الصالحين المترفقين فقط، بل للعنفاء أيضا. لأن هذا فضل إن كان أحد من أجل ضمير نحو الله يحتمل أحزانا متألما بالظلم. لأنه أى مجد هو إن كنتم تلطمون مخطئين فتصبرون. بل إن كنتم تتألمون عاملين الخير فتصبرون فهذا فضل عند الله».

وكثيرا ما أكد مؤرخو الرق مزاياه الاقتصادية بالنسبة للأمم التى تقوم بالاسترقاق، لاسيما بالطريقة التى تستخدم العبيد فيها فى زراعة المحاصيل التى تتطلب عملا كثيفًا مثل زراعة قصب السكر، أو الدخان والقطن، بحيث تكون أرباحها عالية، ومن ثم كانت تجارة الرقيق وافرة الأرباح أيضا. **هذا التركيز على اقتصاديات الرق قد حجب الجانب الدينى، الذى ربما كان أكثر أهمية، فقد كان أول ملاك العبيد فى القارة الأمريكية هم الإسپان والبرتغاليين الذين أحسوا أن لهم الحق فى امتلاك العبيد، ليس فقط على أساس من الكتاب المقدس، ولكن لأن ذلك كان يتماشى مع تعاليم الكنيسة الكاثوليكية؛ إذ إن القديس أوغسطين والقديس توماس (الأكوينى) أباحاه، كما أن بعض البابوات ومنهم جريجورى الكبير، كانوا من مالكى العبيد.** ويمكن أن يكون هناك قليل من الشك فى أن الكنيسة الكاثوليكية لو أدانت الممارسة فى البداية لما كان للرق أن يجد له مكانا فى الجزء الكاثوليكى من العالم الجديد، ولما كان سينتشر أيضا فى المستعمرات البروتستانتية فى الشمال، التى لم توافق فى البداية على ممارسات الرق الإسپانية والبرتغالية باعتبارها أمثلة إضافية على الطغيان الكاثوليكى.

وسرعان ما صار استرقاق الأهالى الأصليين، لا سيما من جانب الإسپان قصة من قصص الرعب البروتستانتية، وحسبما يقول إدموند س. مورجان فى كتابه : «American Slavery, American Freedom »

«انحط قدر الأهالى الأصليين إلى أن يصيروا عينات من العبودية أو الرق

وتدهورت أعدادهم بصورة كارثية. وفى مكانهم جلب الإسپان عبيدا من أقاليم أخرى، خصوصا من أفريقيا، وبينما انتشرت القصة فى أرجاء أوروپا فى الصحفات المدهشة للمؤرخ الإسپانى پيتر مارتير، وفى الصفحات المثيرة للراهب الدومينيكانى بارتيلميو دى لاسى كاساس، فإنها أضافت أبعادا جديدة للصورة الأوروپية التقليدية عن القسوة الإسپانية».

وأثناء حكم مارى تيودور (مارى الدموية) التى تزوجت من ملك إسپانيا، كان اضطهاد المنشقين وإحراقهم فى انجلترا مرتبطا فى الذهن العام بقسوة الإسپان تجاه الهنود الذين استعبدوهم. وقد استعار چون بونيت، الأسقف السابق لوينشيستر من پيتر مارتير (الذى كان من أوائل البروتستانت الإيطاليين) قصة العبيد الذين أرغموا على العمل فى التنقيب عن الذهب تحت الشمس الحارقة دونما راحة؛ مما تسبب فى موت الكثير منهم، ولم يكن الإنجليز ليقسون بهذا القدر؛ إذ كان على مارى أن تتذكر أنها تحكم «أمة من الرجال الأحرار وليست من الأرقاء» حسبما حذر بونيت، واستخدم أمثلة من الكتاب المقدس ليبين كيف أن النصوص المقدسة أباحت الإطاحة بالحاكم الطاغية.

وحينما صارت القرصنة ضد السفن الإسپانية وإثارة المتاعب فى الممتلكات الإسپانية هى سياسة الدولة تحت حكم الملكة إليزابيث، فإن قادتها البحريين، والذى كان رئيسهم فرانسيس دريك، أثاروا العصيان بين العبيد الأفريقيين الهاربين والهنود المحررين. بيد أن هذا لم يكن تماما لصالح قضية الحرية ومعاداة الرق بصورة خالصة؛ ذلك أن دريك أيضا كان يتعامل فى الرقيق.

ولم تكن الجهود التى بذلتها الكنيسة الكاثوليكية فى إسپانيا لتحديد القيود على حقوق المالك على العبد فعالة سوى بصورة جزئية؛ ولكنها على الأقل أرست معياراً قياسيا كان يمكن للقساوسة فى أمريكا الوسطى والجنوبية أن يوجعوا ضمائر ملاك العبيد فى مناطقهم الكنسية. وبفضل جهود القسيس الإسپانى الدومينيكانى لاس كاساس، الذى يستحق جائزة كونه أول أوروپى يقدر هول الرق الأفريقى والهندى الأحمر، تغيرت القوانين الإسپانية بحيث لم تعد وضعية العبد وراثية، وعندما صار أسقف خياباس فى جواتيمالا سنة ١٥٤٥م جلب تنظيمات ترفض إجراء الطقوس والأسرار المقدسة لمالكى العبيد الذين لا يستجيبون لها. وإدانته

للرق والاستعمار الإسپانى عموما، حظيت ببعض التعاطف من جانب السلطات الإسپانية بما فيهم الملك، ولكنها لقيت مع ذلك اعتراضا من المكائد التى دبرها المستوطنون الإسپان، وكتب تقريراً مسهباً عن شرور النزعة الاستعمارية التى شاهدها، مع تحذير بأن الرب سوف يعاقب إسپانيا إذا لم تعدل طريقتها. وصار اسمه إلهاما لحركة معاداة الرق مرة أخرى فى القرن التاسع عشر.

وطبقًا لكتاب تاريخ الكنيسة الزنجية The History of Negro Church الذى كتبه كارترج. وودسون، فإن ماريلاند التى كانت فى الأصل ولاية كاثوليكية، كانت هى المستعمرة الأمريكية الوحيدة التى أخذت بجدية واجبها فى التبشير بالإنجيل بين العبيد السود، وقبلت أن النتائج ستكون تحرير الأرقاء الذين يعتنقون المسيحية.

« بعد قدر من المعارضة، واجه شعب تلك المستعمرة اختيار التبشير بالإنجيل للكل بغض النظر عن اللون. وكان أوائل القساوسة والمبشرين العاملين فى ماريلاند يعتبرون أن من واجبهم أن ينوروا العبيد، وأن يجعلوا استعدادهم كافيًا، عندما صارت تعليمات وسطاء الكنيسة أكثر انتظاما للفهم الصحيح لمذهب الكنيسة، وتم تقديم نوع من التعليمات للزنوج المرتبطين بهذه المؤسسات فى التمسك بالعاطفة التى تم التعبير عنها فى القوانين الأولى التى أصدرها الحكام الإسپان والفرنسيون، وفيما بعد فى القانون الأسود الذى يحكم الأرقاء فى المستعمرات التى كان يسيطر عليها اللاتين.

وعلى الرغم من أن موقف الرواد الكاثوليك لم يكن مشجعا بالمرة لحركة تحويل الزنوج إلى المذهب الإنجيلى، فإن المساعدة التى جاءت من البروتستانت المستوطنين فى المستعمرات الإنجليزية كانت أقل.

وقليل من الرواد، إذا كان هناك أحد منهم على الإطلاق، من بريطانيا العظمى هم الذين كانت لهم الروح التبشيرية التى كانت لبعض اللاتين. وإذ كان الإنجليز مهتمين أساسا فى تأسيس أوطان جديدة فى أمريكا، فإنهم ظنوا أن الزنوج ليسوا موضوعا للعمل الخيرى الإنسانى المسيحى، وإنما هم أدوات يمكن بها أن يصلوا إلى هذا الهدف. ومن ثم فإنه ليس غريبا أنه مع تقديم الرق باعتباره عاملاً اقتصاديًا فى تطور المستعمرات الإنجليزية، لم يتم توجيه سوى قدر قليل من الاهتمام

لحاجات الزنوج الروحية، وخاصة عندما جابهوا القانون غير المكتوب الذى يقضى بأنه لايمكن استرقاق المسيحى.

أما فى المستوطنات الشمالية البروتستانتية، لم تكن أى قيود دينية تكبح تجاوزات أى مالك للعبيد، سوى فيما يتعلق باستخدام عبيده للأغراض الجنسية. ومع هذا فإن كثيرا من ملاك الرقيق ممن كانوا مسيحيين بروتستانت أخيارا قد حاولوا بالفعل معاملة عبيدهم بطريقة إنسانية عموما، واستخدام العبيد خدمًا فى المنازل ومربيات للأطفال خاصة؛ أدى فى بعض الأحيان إلى وجود روابط محبة حقيقية بين المالك والمملوك.

والحقيقة أن الأساس الفلسفى للرق، إذا ما تناولناه كفكرة خالصة، ليس خطأ بهذا القدر من الوضوح. فالإمبراطورية العثمانية مثال على مجتمع أمكن فيه للرقيق أن يرتقوا المناصب العليا ويمتلكوا الممتلكات ويتزوجوا ويكونوا عائلات. وكانت بعض ممارسات الرق فى أفريقيا مشابهة، وحتى فى المجتمعات الغربية الحديثة، يمكن إتاحة فرصة العمل أمام المسجونين. والتجنيد فى الجيش الوطنى زمن الحرب نوع من العبودية: إذ إن القوات البريطانية التى صدرت لها الأوامر بحفر الخنادق على الجبهة الغربية سنة ١٩١٦م لم تكن أكثر حرية فى الرفض من عبيد فرعون، كما أنهم كانوا عرضة مثلهم للإعدام إذا رفضوا، والعامل الأجير يبيع عمله بالساعة؛ وليس من الواضح مباشرة لماذا لا يبيع عمله طوال عمره، إذا ما كان يريد ذلك. بيد أن هذه الفذلكة النظرية عن الرق تخفى حقيقة ما حدث بالفعل للملايين الذين تم اختطافهم من العبيد الأفريقيين فى المستعمرات الأوروبية فى العالم الجديد، ثم فى أمريكا المستقلة فيما بعد؛ إذ إنهم لم يكونوا يعاملون بوصفهم بشرا وإنما كالحيوانات، وحيوانات الحمل والجر. ولم يكن عملهم هو المملوك قانونا وإنما وجودهم كله، حياتهم، جسدا وروحا. وحتى الرومان لم يخضعوا عبيدهم لمثل هذا الهوان.

وإذا ما وضعنا فى اعتبارنا كيف أنه غالبا فى تاريخ الأسطورة الأنجلو ـ أمريكية عن الشعب المختار يكون الحب البروتستانتى للحرية معارضا للكاثوليكية باعتبارها تجسيدا للطغيان والعبودية، فإن السجل الحقيقى للكنيسة الكاثوليكية فى مسألة العبودية يستحق دراسة أكثر تفصيلا. والحوار الذى جرى فى إسپانيا القرن السادس

عشر والقرن السابع عشر حدث فى كل مكان آخر فى العالم الكاثوليكى الأوروبى، مع كثير من المناقشة العقلية عمّا كان وعمّا لم يكن مسموحا به فى طريق الرق. وكانت الخلفية هى حقيقة أنه منذ العصور الإمبراطورية الرومانية لم يختف الرق من منطقة البحر المتوسط، كما أنه مورس على نطاق واسع من جانب الدول الإسلامية. بما فى ذلك الأتراك. ففى العصور الوسطى تم وضع فروق دقيقة بين الطرق المختلفة للرق. وكان أكثر هذه الطرق شيوعا هو الأسر فى المعركة (فقد كان الرق هو المصير المشترك لأسرى الحرب)، وثمة طريقة أخرى تمثلت فى إدانة المرء كمجرم؛ مما كان يؤدى إلى عبوديته مدى الحياة أو لفترة من الزمان. وكان يمكن دفع فدية لأسرى الحرب الأرقاء، بطلب من بلادهم أو من عائلاتهم. وأيًا كانت الطريقة فقد كان يمكن بيع العبيد وشراؤهم، ولكن ثمة تفرقةً وتمييزاً تم فى زمن مبكر بين النخاسة (حيث كانت ملكية العبد مثل ملكية حيوان للنقل) أو الرق المسيحى حيث كان يسمح لمالكى العبيد أن يمتلكوا ويبيعوا عمل العبد، ولكن لا يسمح لهم بقتل العبد أو بتر عضو من أعضاء جسده، أو إيذاء أخلاقه أو أخلاقها (وهو ما كان يمنع العبودية الجنسية).

وكان الملاك الذين يشترون عبدا يؤمرون بأن يتحروا إذا ما كان العبد قد خضع للاسترقاق بطريقة عادلة، أو ظلمًا، حسب المعايير المذكورة من قبل. وطالما أن العبد الذى تم استرقاقه ظلما كان يجب إطلاق سراحه، فإن هذا كان يجعل الملاك يحجمون عن شرائهم. كان الملاك يسمح لهم بشراء العبيد الذين تم استعبادهم ظلما، على أية حال، بشرط إطلاق سراحهم بعد أن يؤدوا أعمالاً تكفى لاستعادة الثمن الذى دفع فى شرائهم، وكانت هناك مناقشات كثيرة حول ما إذا كان العبيد من الهنود الحمر، الأهالى فى أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية، قد استرقوا بصورة عادلة أم بصورة ظالمة، وهو الأمر الذى اعتمد على ما إذا كانوا قد أسروا فى الحرب، أم تم خطفهم فى غارة قامت بها إحدى العصابات أو المجموعات. وفى الواقع غالبا ما كان يتم تجاهل هذه النظريات الدقيقة، بيد أنها كانت أكثر تحضراً بكثير إذا ما قورنت بممارسات الرق الأنجلو أمريكية فيما بعد. وفى بعض الأحيان كان الڤاتيكان يتدخل بقوة لصالح العبيد. فمثلاً فى سنة ١٥٩١م صدر مرسوم بابوى إلى أسقف مانيلا فى الفيليپين حول الموضوع، وحسب ما أورده چون

فرانسيس ماكسويل فى كتاب Slavery and The Catholic Church فإن هذا أوضح «أن كثيرا من الإسپان فى جزر الفيليپين قدروا أن عليهم واجبا بعمل تعويض للهنود عن الأضرار والدمار الذى لحق بهم وبممتلكاتهم على أيدى الإسپان. واتباعا لشروط المرسوم الملكى أمر البابا بتحرير كل العبيد الهنود الذين يمتلكهم الإسپان فى الفيليپين وإلا تعرضوا لعقوبة الحرمان الكنسى».

وبعد ذلك بأقل من مائة سنة، أى فى سنة ١٦٨٦م، صار الڤاتيكان مهتما بتجارة الرقيق الأفريقية، وأصدر المكتب المقدس لمحاكم التفتيش تعليمات إلى الكاثوليك الذين ربما يجدون أنفسهم متورطين فيها، ويقرر ماكسويل:

«بصفة عامة يجب على التجار الكاثوليك أن يفرقوا بين الزنوج الذين تم استعبادهم بطريقة عادلة، وأولئك الذين استعبدوا ظلما، والأسر بالقوة أو الخداع ثم ما يتبعه من المتاجرة فى الزنوج الأبرياء المسالمين وغيرهم ممن يعيشون فى أقاليم الغابات، غير قانونى من الناحية الأخلاقية. والتجار الذين يحتجزون مثل هؤلاء الأشخاص الذين تم استرقاقهم بطريقة غير عادلة، عليهم أن يحرروهم ويعوضوهم عن الأضرار التى لحقت بهم. وإذا شك المشترون فى أن المعروضين للبيع قد استعبدوا بصورة ظالمة فإن عليهم أن يستفسروا عن عدالة اللقب الذى يحتجزون بمقتضاه».

وفضلاً عن ذلك أصرت الكنيسة على حقوق العبد الذى تم استعباده ظلمًا فى أن يرفض أن يشتريه مسيحى إذا كان ذلك ضد ضميره. واضطرب هذا التناول الأخلاقى السامى فى مسألة ملكية العبيد عندما تعلق الأمر بتدبر حقوق أبناء العبيد. إذ كان من المسلم به عموما فى داخل الكنيسة الكاثوليكية حتى القرن التاسع عشر أن ابن العبد الذى دخل العبودية بصورة عادلة يمكن امتلاكه أيضا بصورة عادلة إلى مابقى من عمره.

وهذا كله لا يتعلق إلى حد ما بتجارة الرقيق عبر الأطلنطى بطبيعة الحال؛ لأن أحدا لم يكن يتظاهر بشكل جدى أن العبيد المنقولين من أفريقيا لكى يباعوا فى أمريكا تم استعبادهم بشكل عادل كأسرى حرب، أو مجرمين، أو أطفال لعبيد. لقد كانوا رقيقا مثل الممتلكات المنقولة، ليست لهم أية حقوق على أشخاصهم، أو

حياتهم، وليست هناك حماية لأخلاقياتهم أو اعتبار لأرواحهم أيًا كان. وبعد إلغاء تجارة الرقيق على أيدى البريطانيين، وافق البابا بيوس السابع على طلب الحكومة البريطانية بمساندة الجهود فى مؤتمر ڤيينا سنة ١٨١٥م لاعتبار تجارة الرقيق غير قانونية على المستوى العالمى.

وليست مصادفة أن الرق كان له تاريخ طويل كموضوع مثير للجدل الأخلاقى. إذ كان كثير من المسيحيين الأوائل من الطبقات الأدنى فى الإمبراطورية الرومانية - بل إن المسيحية ذاتها صارت تعرف بأنها ديانة العبيد - ولم يكونوا يعتبرون أن من تعاليم الدين الجديد أن يرفعوا راية العصيان ضد سادتهم. والواقع، أن هذا المثال غالبا ما كان يقدم عندما كان المدافعون عن الرق فى أمريكا الجنوبية يجيبون على الحملة الدينية المتصاعدة لإلغاء الرق فى الشمال، فى السنوات الستين الأولى من القرن التاسع عشر.

ومع هذا فقد خسروا هذه المجادلة، وكان جزء من السبب راجعًا إلى أن أنصار الإلغاء تبنوا حججًا دينية تشبه تلك الحجج التى كانت سائدة فى بريطانيا قبل نصف قرن - ومؤداها أنه إذا كان الشعب المختار لا يتصرف بشكل عادل فإنهم يخاطرون بخسارة رضى الرب، وستكون الأمة حينئذ عرضة للمصائب. فلم تكن العبودية بحد ذاتها ضد إرادة الرب، ولكن ما كان ضد إرادته هو الفقر والقسوة الفعلية التى كانت تصاحبها فى الممارسة التى كانت تصاحب العبودية دائما.

وفى حالة أمريكا، على نحو خاص، اختلط موضوع الرق بمسألة حقوق الملكية. وأية محاولة لرفع نوعية الحياة التى يحياها العبيد بإجبار ملاكهم على أن يسلكوا سلوكا أفضل، كانت تقابل بالشكوى من أن هذا تدخل فى حرية ممارسة حقوق الملكية، وهو نوع من «البقرة المقدسة» كان شائعا بين الملاك فى أمريكا. ونتيجة لهذا التردد فى تنظيم الرق، كان توزيع القوة بين العبد والمالك مختلا لدرجة أن أبشع أنواع الظلم كانت أمورًا حتمية.

ولم يكن هناك كتاب أشد تأثيرًا لصالح أنصار الإلغاء من رواية «كوخ العم توم» التى كتبتها هاريت بيشر ستو - والتى حياها إبراهام لنكولن أثناء الحرب الأهلية بوصفها السيدة الصغيرة التى أشعلت هذه الحرب الكبيرة». وقد كتبت آن دوجلاس

فى تقديمها لطبعة پنجوين من هذه الرواية : «لم يكتب أحد تقريبا فى أمريكا المعادية للحرب عن الرق فى مصطلحات علمانية ؛ إذ إن المدافعين عن الرق شرحوه باعتباره ضرورة اقتصادية وترتيبًا إلهيًا ؛ وقد أشاروا بفخر إلى كل العبيد الذين تحولوا من الوثنية إلى المسيحية ، بسبب ارتباطهم بسادتهم المسيحيين . وكان كثير من معارضى الرق يعتقدون أنه لعنة على السيد والعبد سواء بسواء» .

كانت رواية هاريت بيشر ستو ، وهى أول رواية تكتبها كاتبة أمريكية على الإطلاق ، قد أثارت ضجة عندما نشرت على حلقات ، وفى النهاية صارت الأفضل مبيعًا فى أمريكا القرن التاسع عشر . ووصف لنكولن لها بأنها السيدة الصغيرة يشى بالمزيد عن موقفه تجاه نجاح الأنثى أكثر من موقفه إزاءحجمها الجسدى أو قامتها . وباستثناء السيناريوهات المتوقعة عن الحب الرومانسى وتضحية المرأة بنفسها ، لم يكن متوقعًا من الكاتبات النساء فى أمريكا أن يخضن فى موضوعات خطيرة ، على الرغم من أنه على مدى أكثر من قرن كانت النسوة على قمة الفضاء الأدبى فى انجلترا (مع أنه فى حالة أعظم كاتبة بينهن ، وهى مارى آن إيفانز ، كانت تكتب تحت اسم مستعار ذكورى هو چورچ إليوت) . ومع هذا فإن رواية ستو العاطفية عن الرق والحرية كان لها تأثير كبير بالقدر الذى جعلها تحفز المشاعر فى الشمال بحيث ترفض اتفاق ١٨٥٠م ، ليس فقط بسبب الشرط الوارد فيه بأن العبيد الذين يفرون إلى الشمال تجب إعادتهم إلى أسيادهم . ولم تكن ستو تعترض على الرق بالمعنى الأخلاقى السائد اليوم . ولم تتحدث عن حقوق الإنسان . وفى تناولها لشخصية رئيسية فى الرواية ، وهو العبد چورچ هاريس ، حسبما تشرح آن دوجلاس :

«ما كان يهم ستو أكثر فى چورچ هاريس لم يكن ما إذا كان أو لم يكن له حق الهرب (ومن الواضح أنها كانت تؤمن أن من حقه أن يهرب) أو حتى إذا ما كان ينبغى له أن يعود إلى أفريقيا أم لا . أما ما كان يشغلها أكثر فهو إذا كان الظلم الذى ناله بهذا القدر من العنف ، سيجعل من المستحيل عليه أن يؤمن بأى شكل بالرب الذى يؤمن به أسياده نظريًا ، وإذا ما رفض المسيحية فما هو الشىء الذى سيعيش من أجله وكيف؟ . لأن أكبر تهمة وجهتها ستو ضد الرق هى أنه سوف يقتل الروح داخل العبيد . . . .» .

لقد كان اهتمامها اهتمام مبشر وقسيس ، وليس اهتمام أحد المشاركين فى حملة

من أجل الحقوق المدنية. ولكن أيضا، بمعنى دينى، أنها وطنية أمريكية. وهى فى الصفحة الختامية من روايتها تنحى جانبا ما تتفق عليه الروايات الخيالية فى منتصف القرن التاسع عشر وتعتلى منبر الوعظ. إذ كانت تؤمن، كما تقول دوجلاس؛ بأن الرب سوف يوقع العقاب جزاء الرق على أساس من النص الوارد فى إنجيل متى (١٨ : ٧):

«ويل للعالم من العثرات. فلابد أن تأتى العثرات. ولكن ويل لذلك الإنسان الذى به تأتى العثرة».

وبسبب كل ما تحمله رواية «كوخ العم توم» من أهمية سياسية، فلا غرابة فى أنه صار من الشائع، حسب النقد الأسود الحديث، استبعاد هذه الرواية باعتبارها صورة مهينة للناس السود. وبالنسبة لدى بوا، الكاتب الأسود المشهور ومؤسس الرابطة الوطنية لتقدم الملونين، كان الضرر الذى سببته الروحية السوداء الخانعة ضررًا أساسيا.

«هذه الجبرية الدينية العميقة، التى تم تصويرها بصورة جميلة للغاية فى رواية العم توم، سرعان ما صارت، مثل كل العقائد القدرية، تربى الشهوانى مثلما تربى الشهيد. وفى ظل الحياة الأخلاقية المسترخية فى المزرعة، حيث الزواج أضحوكة، والكسل فضيلة، والملكية سرقة، كان من السهل أن تؤدى إلى ديانة قوامها الانسحاب والخضوع، وفى العقول الأقل نشاطًا إلى فلسفة للتساهل والجريمة. وكثير من أسوأ خصائص الجماهير الزنجية اليوم كانت بذرتها فى تلك الفترة التى شهدت النمو الأخلاقى للعبد. هنا حدث تخريب للوطن تحت ظل الكنيسة...».

هذا الاعتراض يركز اهتمامه على شخصية توم نفسه، الذى صورته الرواية مؤدبا، مثل الأطفال مطيعًا وسلبيًا، بل حتى مستكين فى وجه تجاوزات القسوة والظلم. وفى نهاية الكتاب، وهو يموت ألما بعد جلده جلدًا مبرحًا بالسياط، يسامح توم مالكه الأبيض ومعذبه، ويرى المسيح فى رؤيا. ويفترض النقاد السود المحدثون أن ستو تحث هذه الروح التسامحية عند السود حينذاك والآن ـ التسامح حتى قبل أن يقبل البيض الاعتراف بأنهم فعلوا شيئا يستحق التسامح.

وتقترح آن دوجلاس أن هذا لم يكن قصدها، على الرغم من أنها ربما لا تعطى

وزنًا كاملاً للمغزى اللاهوتى لمقاربة ستو؛ إذ إنها تعمل داخل منظومة أخلاقية كالڤينيه لكى تصور العبد توم فى صورة واحد من المقدر لهم أن يكونوا من المختارين، أو قديس (بالمصطلحات الكالڤينية) الذى يضمن مكانه فى السماء. وحضور المسيح عند فراش موته ربما لم يكن يعنى شيئا سوى هذا. **وكانت فكرة أن السود يمكن أن يكونوا بين الشعب المختار بحد ذاتها نقطة قوية ضد العنصرية، وتحدت الافتراض الشائع بين الكالڤينيين الشماليين بأن العهد الذى عقده الرب كان مع الجنس الأبيض وحده. كان هذا موضوعًا حيًا: ففى سنة ١٨٥٧م وفى قضية دريد سكوت الشهيرة حكمت المحكمة العليا بأنه لا العبيد ولا السود الأحرار يمكن أن يكونوا مواطنين أمريكيين. كانت واعية - وقالت هذا فى كتابها - أن العنصرية فى الشمال كانت جزءًا من مشكلة العدل إزاء السود فى أمريكا، مثلما كانت العبودية جزءًا من المشكلة فى الجنوب تمامًا. واقتربت ستو من القول بأن توم كان شبيها بالمسيح، بيد أن هذا كان أقرب إلى الفهم الكاثوليكى للقداسة - وهو نوع من التنميط لم تكن پروتستانتية مثل هذه الكاتبة على ألفة به.**

كانت الطريقة التى مات بها المسيح على الصليب (حسب الاعتقاد المسيحى) تتسم بالخضوع، والطاعة لمصيره، والتسامح إزاء من حكموا عليه وأعدموه. ومنذ ذلك الحين واجه كثير من الشهداء المسيحيين الموت فى عملية تقليد للمسيح، محاولين أن يخلقوا فى أذهانهم من جديد الحالة الذهنية والروحية التى أظهرها المسيح - أى القبول بقدر ومصير لا يمكن تغييره. ولكن لم يكن من المفترض أبدًا أن هذا يعنى أنه كانت هناك طريقة واحدة فقط للموت تناسب الفرد المسيحى. وأولئك الذين انتقدوا ستو، على أساس أن تصويرها لموت توم كان فى واقع الأمر بمثابة نصح لكل السود العبيد بأن يعيشوا ويموتوا بطريقة سلبية ومتسامحة مثل هذه الطريقة التى مات بها توم - أولئك أساءوا فهم اللاهوت الذى كتبته. «لقد مات توم حتى يمكن للآخرين أن يعيشوا»؛ لأنه رفض أن يخون أصدقاءه. وكان من حق ستو أن تجادل بأنه من المسموح للمسيحيين فى ظروف أخرى ألا يموتوا لمثل هذا السبب، وإنما يمكن لهم أن يقتلوا لسبب مثل هذا. فالغضب الحق ليس ضد المسيحية. وبعبارة أخرى، فإن هذا ليس دفاعًا عن المسالمة أو الخضوع فى مواجهة الشر كشر.

ومع هذا فإن الغموض الذى يعترى السرد ـ وهو الذى أتاح لناقديها الفرصة ـ كان من فعلها، ولم تقل ما يكفى لتبديده. وأجيال من السود كانوا يتلقون النصح حتى من زعمائهم ورعاتهم الكسيين بعدم التمرد ضد المعاملة السيئة، على حين أن المقاومة المحسوبة لهذا، ربما كانت خدمتهم بصورة أفضل على المدى الطويل. ولذا فإن الميراث الدائم لرواية ستو لم يكن الاعتراف العالمى بإسهامها الفريد فى إنهاء الرق، وإنما تمثل فى الاستخدام المحط «للعم ترم» باعتباره نمطًا للأسود الخانع المؤدب المتسامح، والذى يفتقر إلى الشجاعة أساسًا، والذى هو ضحية للرق، وهو نوع من النموذج تعلم المجتمع الأسود فى أمريكا أن يحتقروه وهم محقون فى هذا تمامًا. وسيحتاج هذا إلى مزيد من الدراسة حينما نتدبر التجربة السوداء الحقيقية فى النضال ضد العنصرية والعبودية، بدلاً من تخيل البيض لها، ولاسيما التنميط القوى والمحرك للجماعة السوداء الأمريكية، باعتبارها صورة أخرى من شعب الله المختار. ولم تكن الصورة المفضلة صورة العم توم «الخادم الذى يعانى»؛ وإنما كانت صورة العبيد السود كقبيلة بيعت فى رق العبودية تحتاج إلى واحد منهم يقودها خارج مصر إلى الأرض الموعودة.

وكانت ستو غافلة عن هذا كله؛ إذ إنها طعمت قصتها بتحذير رصين إلى أمريكا البيضاء ـ التى كانت ما تزال هى شعب الله المختار فى عينيها ـ من مصيرها المحتمل، فى مصطلحات تتوقع بشكل مدهش، بل هى نبوءة فى الواقع، بالحرب الأهلية المرعبة التى وقعت بعد أقل من عقد من الزمان:

«هذا زمن ترتعش فيه الأمم وترتج. وثمة تأثير عظيم فى الخارج؛ مما أدى إلى إثارة العالم ودفعه، مثلما يحدث فى الزلزال. وهل أمريكا آمنة؟ وكل أمة تحمل فى صدرها ظلما كبيرًا، فى داخلها عناصر هذا الارتجاج الأخير».

يا كنيسة المسيح، إقرئى علامات الأزمنة! أو ليست هذه القوة هى روح الرب الذى لم تأت مملكته بعد، والذى ستنفذ مشيئته على الأرض كما هى فى السماء؟.

ومن يثبت عند ظهوره. لأنه مثل نار المحمص... وأكون شاهدًا سريعًا على السحرة والفاسقين وعلى الحالفين زورًا وعلى السالبين أجرة الأجير، الأرملة

واليتيم. . . « . . . لأنه هو ذا البعداء عنك يبيدون»(*) «أو ليست هذه كلمات مرعبة لأمة تحمل فى صدرها مثل هذا الظلم الفادح؟ أيها المسيحيون، فى كل مرة تصلون فيها لكى تأتى مملكة المسيح، هل يمكنكم أن تنسوا أن النبوءة تربط يوم الحساب بيوم خلاص الرب على نحو رهيب؟

ومع هذا فإن أمامنا يومًا مهلة يعرضه الرب علينا. إذ إن كلا من الشمال والجنوب قد أذنبا أمام الرب؛ وعلى الكنيسة المسيحية أسئلة كثيرة تستوجب الإجابة، ليس بالاندماج سويًا لحماية الظلم والقسوة، وبعمل رأس مال مشترك من الخطيئة، يمكن إنقاذ هذه الأمة ـ وإنما بالتوبة، والعدل والرحمة؛ لأن القانون الخالد الذى يجعل حجر الطاحونة يغوص فى المحيط ليس مؤكدًا أكثر من القانون الأقوى القائل بأن الظلم والقسوة يجلبان على الأمم غضب الرب العظيم!».

كانت اقتباساتها من النصوص المقدسة مأخوذة من سفر النبى ملاخى، واستكملت بعبارة من المزمور الثالث والسبعين. ولكى نقدم السياق الذى لابد وأن قراءها البروتستانت كانوا سيدركونه فى الحال، يستحق الأمر منا أن نقدمه هنا كاملاً. وهذا على أية حال، إذا كان الرئيس لنكولن محقًا، هو النص الرئيسى فى الكتاب الذى تسبب فى نشوب الحرب التى ألغت الرق. وفى هذه النسخة الموسعة، يصيح الاقتباس من سفر ملاخى واضحًا كتهديد من الرب بأن يدمر أمة تخون التزامها بالميثاق. وفى بلد كانت تعتبر الحماية الخاصة من الرب بمثابة مفتاح لماضيها وحاضرها، فإن هذا يكون تحذيرًا وخيمًا بقدر ما هو ممكن الوقوع. ونبوءة ستو بالعقاب الإلهى الوشيك كانت أيضا ستعزز من تردد الشمال فى القبول بمطالب الجنوب فى الاستقلال، حينما صارت خلافاتهما بشأن الرق غير قابلة للتسوية. و«ترك الجنوب يذهب» ربما كان سيحل المأزق السياسى، ولكنه لم يكن ليؤجل حكم الرب. وبالمثل، ففى هذا الضوء يمكن تفسير القتال «لإنقاذ الاتحاد» ليس كمجرد محاولة لمنع انقسام الولايات المتحدة إلى قسمين. فقد كان أيضا قتالاً لإنقاذ

(*) هذا نص مركب من عبارات سفر ملاخى الإصحاح الثالث، والمزمور ٧٣ استخدمته كاتبة النص الذى أورده المؤلف بصورة تضمينية فى كتابها. ورأيت أن أثبته هكذا دون تصرف حتى لا يفسد النص ـ المترجم.

الاتحاد من غضب الرب ـ أى الخلاص بالمعنى الدينى الصارم. ففى المزمور الثانى والسبعين (١ ـ ٤):

«اللهم أعط أحكامك للملك وبِّرك لابن الملك. يدين شعبك بالعدل ومساكينك بالحق. تحمل الجبال سلامًا للشعب والآكام بالبر. يقضى لمساكين الشعب. يخلّص بنى البائسين ويسحق الظالم».

وفى ملاخى (٣: ١ ـ ٧):

«ها آنذا أرسل ملاكى فيهىء الطريق أمامى ويأتى بغتة إلى هيكله السيد الذى تطلبونه وملاك العهد الذى تسرون به هو ذا يأتى قال رب الجنود. ومن يحتمل يوم مجيئه ومن يثبت عند ظهوره. لأنه مثل نار المحمص ومثل أشنان القصّار. فيجلس ممحصًا ومنقيًا للفضة فينقى بنى لاوى ويصفيهم كالذهب والفضة ليكونوا مقربين للرب تقدمة بالبر. فتكون تقدمة يهوذا وأورشليم مرضية للرب كما فى أيام القدم وكما فى السنين القديمة. واقترب إليكم للحكم وأكون شاهدًا سريعًا على السحرة وعلى الفاسقين وعلى الحالفين زورًا وعلى السالبين أجرة الأجير الأرملة واليتيم ومن يصد الغريب ولا يخشانى قال رب الجنود. لأنى أنا الرب لا أتغير فأنتم يا بنى يعقوب لم تفنوا.

من أيام آبائكم حدتم عن فرائضى ولم تحفظوها. ارجعوا إلىّ أرجع إليكم قال رب الجنود. فقلتم بماذا نرجع».

وجاء فى سفر ملاخى (٤: ١ ـ ٦):

«فهو ذا يأتى اليوم المتقد كالتنور وكل المستكبرين وكل فاعلى الشر يكونون قشًا ويحرقهم اليوم الآتى قال رب الجنود فلا يبقى لهم أصلاً ولا فرعًا.

ولكم أيها المتقون اسمى تشرق شمس البر والشفاء فى أجنحتها فتخرجون وتنشأون كعجول الصيرة. وتدرسون الأشرار لأنهم يكونون رمادًا تحت بطون أقدامكم يوم أفعل هذا قال رب الجنود:

اذكروا شريعة موسى عبدى التى أمرته بها فى حوريب على كل إسرائيل الفرائض والأحكام.

هأنذا أرسل إليكم إيليا النبى قبل مجىء يوم الرب العظيم والمخوف فيرد قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آبائهم لئلا آتى وأضرب الأرض بلعن».

وإذا ما استبعدنا الكتب المعروفة بالأبوكريفا(*)، فإن هذه الكلمات التى أوردها سفر ملاخى فى الإصحاح الرابع هى آخر كلمات العهد القديم. وبطبيعة الحال كانت ستو تتكلم من داخل تراث كان غائصًا فى الكتاب المقدس؛ إذ إنها، بل والأهم أولئك الذين قرأوا كتابها، كانوا يعيشون جميعا أثناء فترة من التوقعات الدينية العالية ارتبطت بالصحوة الدينية الكبرى الثانية، وهى حركة إحيائية اجتاحت أمريكا من نيوإنجلاند فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد تطور شكلها الرئيسى إلى ظاهرة اجتماع المعسكر، أى تجمع الأهالى المحليين حول مبشر رَحّال تحتوى مواعظه وخطبه على الكثير من الكلام عن نيران الجحيم والترانيم الجذابة. وقد أدت اجتماعات المعسكر والحميمة الإحيائية التى نتجت عنها إلى تنصير كثير من العبيد للمرة الأولى، وكان التحسن الأخلاقى الذى بدا من تداعيات هذا، قد راق فى عيون ملاك العبيد المحليين. وكتبت ستو أن العم توم نفسه قد اعتنق المسيحية فى أحد اجتماعات المعسكر. وقد نشرت الصحوة الثانية المذهب الإنجيلى من طراز نيوإنجلاند فى الجنوب والغرب الأوسط، وهى المناطق التى عرفت فيما بعد باسم «حزام الكتاب المقدس». وأحدى النتائج الجانبية للمناخ الدينى بالغ السخونة الذى انتجته الصحوة الثانية تمثل فى ظهور أنواع من التبشير الطائفى الصارم لدى عدة طوائف تعتمد على القراءة الألفية، بل وشديدة الحرفية للكتاب المقدس. وكان أكثرهم تمايزًا طائفة المورمون بكتابهم المقدس الخاص (سفر المورمون) وأعادوا إحياء الممارسة الإسرائيلية القديمة فى تعدد الزوجات. ولم يكونوا هم الوحيدين الذين أصروا على أن خلاص العالم سوف يأتى من خلال الجنس الأنجلو-سكسونى «المختار».

كذلك أعطت الصحوة الثانية قوة دافعة لحركة إلغاء الرق، على الرغم من أن بعض المؤرخين يرى بأن بعض آثارها كانت آخذة فى الشحوب فى وقت عقد اتفاقى

(*) هى الأسفار التى لم يعترف بأنها ضمن أسفار الكتاب المقدس، وكلمة أبوكريفا تعنى المزيفة أو المزورة. وقد استبعدت المجامع الكنسية هذه الأسفار فى زمن باكر - المترجم.

سنة ١٨٥٠م. وقد شعرت ستو نفسها بأنها بحاجة إلى أن تبدأ من جديد، وكان هذا هو السبب فى أنها ألّفت روايتها. بيد أن تأثيرًا أشد ثباتًا وأطول استمرارًا جاء عن طريق غير مباشر بنفس القدر. **وتمامًا مثلما قيل إن الصحوة الأولى قد شجعت المثل الجمهورية فى السنوات التى سبقت حرب الاستقلال، كذلك فإن الصحوة الثانية اعتبرت وكأنها أرست بعض الأسس الأيديولوچية التى أدت إلى الحرب الأهلية.** وكما لاحظنا بالفعل، هناك توتر داخل المسيحية، سواء البروتستانتية أو الكاثوليكية، بين الخلاص باعتباره أملاً وإنجازًا للجماعة المسيحية بأسرها - بحيث يتم خلاص الأفراد لكونهم أعضاء فى هذه الجماعة - والخلاص باعتباره مسألة فردية، خارج الجماعة، بل حتى على الرغم منها. ويتمثل الخطر الروحى للشكل الأول فى أن الأفراد يخضعون لإغراء التساهل، تاركين مسألة الخلاص لعمل الجماعة. وكانت الصحوة الكبرى الثانية موجهة إلى السبات الروحى الجماعى المزعوم الذى انغمس فيه الناس، ودعتهم إلى أن يستيقظوا فرادى، ولا ينتظروا الجماعة من حولهم. **وصار هذا التأكيد على الفردية، نتيجة الصحوة الثانية وانتصار الشمال البروتستانتى، علامة ثابتة من معالم الشخصية الأمريكية. بيد أنها لم تتطور إلى معارضة لفكرة أن الشعب الأمريكى، باعتباره جماعة مسيحية، له خصوصية فى نظر الرب، حسبما كان متوقعًا؛ إذ إن رفع الفرد قد حمل الجماعة بأسرها إلى أعلى معه.**

بيد أن هذه مرة أخرى هى بالضبط رؤية العهد القديم. فقد كان الوعد الممنوح من خلال إبراهيم وعدًا جماعيًا، كما أن الإنقاذ الذى تم تأمينه من خلال موسى كان إنقاذًا جماعيًا. وفى صوت كاتب المزامير تعنى كلمة ربى بالضبط عبارة رب إسرائيل، ربنا. والحركة ذهابًا وإيابًا بين «أنا» و«نحن»، الفرد والمجموع، هى إحدى خصائص المزامير. والمزمور الخامس خير مثال على ذلك. فهو يفتتح، مثل معظم المزامير، بالمفرد، بالفرد ينادى الرب العظيم طلبًا للمساعدة:

«لكلماتى أصغ يارب. تأمل صراخى. استمع لصوت دعائى يا ملكى وإلهى لأنى إليك أصلى. يارب بالغداة تسمع صوتى. بالغداة أوجه صلاتى نحوك وأنتظر» (مزامير ٥: ١-٣).